الغربة المكانية والزمانية في شعر مصطفى جمال الدين

طالب الماجستير ذو الفقار سعد حمزة الجبوري
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الانسانية، جامعة رازي، كرمنشاه، إيران
thoalfakarsaadaljboury@gmail.com
الدكتور شهريار همتي
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
Sh.hemati@Yahoo.com
الدكتور يحيى معروف
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمانشاه، إيران
y.marof@yahoo.com

Spatial and Temporal Alienation in the Poetry of Mustafa Jamal al-Din

Master's Student: Zulfikar Saad Hamza al-Jubouri
Department of Arabic Language and Literature , College of Humanities , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Shahriar Hemti
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran
Dr. Yahya Maarouf
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , Razi University , Kermanshah , Iran

الملخص:-

لابدَّ لنا أن نقف وقفة تأملٍ على ما كتبه العراقيون المغتربون في حنينهم إلى وطنهم الذي فارقوه منذ سنين طوال، وعند النظر في شعر السيد مصطفى جمال الدين نرى أنَّه أصبح أيقونة التعبير عن لسان حال كل المغتربين، الذين عانوا الاضطهاد السياسي، و قد امتاز شعر الغربة لديه بصدق المشاعر، وقوة الألفاظ، والبراعة في تصوير حياة الانسان المغترب الذي جعلته الغربة انسانًا آخر يقاسي ألمين، الأول ألم الغربة والابتعاد عن الوطن، والآخر ألم الحياة الجديدة الصعبة التي اختلفت عليه من حيث الجوانب المادية والمعنوية، فالقراءة المتأنية للشعر العراقي على مدى عقود (السبعينيات، والثمانينيات والتسعينيات) ترين أن الشاعر العراقي برع في تصوير المنفى أو الدار الجديدة التي أصبحت بديلًا له من وطنه الأم العراق، إذ أكثر المغتربون من قصائدهم التي تغنت بالغربة والحنين إلى أحضان الوطن، فاتخذوا من الرموز الشاخصة أمامهم في بلاد الغربة لتكون دولاً لهم لكي يتذكروا بلدهم الأول وهو العراق.

أمَّا السيد مصطفى جمال الدين فمن خلال تجواله في البلدان العربية والغربية أنتج لنا ثماني عشرة قصيدة تعدُ من أبلغ قصائد الحنين والغربة إذ راح يحن إلى بغداد مدينة العلم والعلماء، وإلى النجف مقر الحوزات العلمية التي كثيراً ما تعلم منها أصول الفقه والدين، وآخر حنينه يكون إلى مسقط رأسه سوق الشيوخ.

الكلمات المفتاحية: مصطفى جمال الدين، الشعر العراقي، الغربة المكانية، الغربة الزمانية، المغتربين، قصائد الحنين والغربة.

Abstract:-

We must pause and reflect on what the Iraqi expatriates wrote in their nostalgia for their homeland, which they left many years ago. When looking at the poetry of Mr. Mustafa Jamal al-Din, we see that he has become an icon of expression for all the expatriates, who have suffered political persecution. His poetry of alienation was distinguished by the sincerity of feelings, the strength of words, and the ingenuity in depicting the life of the expatriate, that alienation turned him to another human being who suffered two pains, the first was the pain of alienation and being away from the homeland, and the other was the difficult new life which was different in material and moral aspects. Through a careful reading of the Iraqi poetry over the decades (the seventies, eighties and nineties) we see the Iraqi poet excelled in depicting the exile or the new home that became an alternative for his mother country, Iraq. They multiplied their poems that sang of alienation and nostalgia for the arms of homeland. So, they took the symbols standing in front of them in foreign countries to be indicators to remind them in their first country, Iraq.

As for Mr. Mustafa Jamal al- Din, during his visiting to the Arab and Western countries, he produced eighteen poems that are considered among the most eloquent poems of nostalgia and alienation. So, he yearned for Baghdad, the city of knowledge and scholars, and for al-Najaf, the seat of seminaries , from which he often learned the principles of jurisprudence and religion. And his last nostalgia was for his hometown, Suq al-Shuyoukh.

Key words: Mustafa Jamal al-Din , Iraqi poetry , spatial alienation , temporal alienation , the expatriates , poems of nostalgia and alienation.

أولاً: مفهوم الغربة:

هي النزوح والبعد عن الاوطان لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو دعائية[١]، أي هي احساس المرء بألم الغربة ولم يبرح وطنه ولم ينأ عن اهله.

من الصعوبة تحديد معنى شامل للغربة، بالرغم من كثرة ما كُتِب حوله فأنَّه" ما زال يعاني كثيرًا من الغموض، ربَّما كان ذلك أمرًا طبيعيًا إذ من الصعب تعريف المفهومات الأساسية تعريفًا دقيقًا"[٢].

وأيًا كانت أسباب الاغتراب: سياسية، اجتماعية، اقتصادية، أو نفسية، فإنَّه شعورٌ متعب يصل في أحيان كثيرة لأن يكون هاجسًا للإنسان.

وشعور الشاعر بالغربة يختلف عن أي شخص آخر، فهو صاحب عالم آخر مليء بالتأملات والأخيلة التي تغتني من الحياة ومن التعمق في تجربة الصراع سواء السياسي منه أم الاجتماعي أم الحياتي بشكل عام، فعالم التأمل والخيال- في النهاية ليس هو العالم الواقعي المعيش[٣].

وبالرجوع إلى تعريف هيجل[٤] للاغتراب، فالشاعر يُفْرَض عليه الاغتراب داخل نفسه، ومن هنا ينشأ لديه الاضطراب الذي ينشأ لدى المغترب ولكن الفرق هنا أنَّ الاضطراب والقلق سيظهر لنا نتاج أدبي لن تجده عند بقية المغتربين.

وحالة الاغتراب في الشعر المعاصر، حالة منتشرة ناتجة عن شعور (بزيف واقع عالمنا الغريب وتصنعه وبعده عن عفوية الحياة الأولى وتلقائيتها، ومن هنا تدفعه التعقيدات للهروب من الواقع بحثًا عن عالم آخر أكثر نضارة وعفوية، لذلك كان اللجوء للتراث أكثر من غيره) [٥].

ويتجسد الإغتراب في الشعر في بعدين: زماني ، ومكاني ، وإذا نظرنا لشعر مصطفى جمال الدين، نجد أنَّه حافل بمضمون الاغتراب، وذلك لعدة أسباب أبرزها قمع النظام السياسي للمثقفين ومنهم شاعرنا، ونعلم أن العراق يحوي عددًا كبيرًا من الشعراء الكبار.

ومصطفى جمال الدين واحد من شعراء العراق الذين عانوا التشرد خارج بلده، وواحد من الشعراء الذين نجد مضمون الغربة موجودًا بقوة في شعره، غير أنَّه يصعب علينا

اكتشاف ملامحه في ديوانه ، لأنَّه قد حجب نصوصه عن النشر في كثير من الأحيان، بالذات في الفترة الأخيرة التي هاجر فيها والتي تمثل فترة اغترابه في الحياة، فكلُّ ما حصلنا عليه من نتاجه في مرحلة الثمانينات حتى وفاته عام ١٩٩٦، ثماني عشرة قصيدة.

ومن هنا فإنَّ تتبع التغيير في تشكيل مفهوم الغربة في شعره لن يكون بذلك الوضوح المنشود، لأنَّه صُدِمَ بمحاولات السلطة شراء قلمه، ثمَّ لم يجد أمامه إلا الخروج من البلاد التي بقى في اشتياق دائم لها طوال مدة ابتعاده عنها، نجد لديه معجمًا حافلًا بمعاني الغربة حتى قبل خروجه للمنفى، وعليه يكون الاغتراب في شعره على بعدين زماني ومكاني، وسندرسه ما يأتي:

ثانيًا: الغربة المكانية:

إنَّ أول ما يتبادر لأذهاننا حينما نفى شخصًا وهو مغتربٌ، هو أنَّ هذا الشخص بعيد عن وطنه، وأولى المفردات التي نجدها لدى الشاعر المغترب هي تلك التي تتعلق بالحنين إلى وطنه والشوق الشديد إليه.

ويتنوَّع خطاب الحنين من شاعر لآخر، فشاعرنا مصطفى جمال الدين يوحد بين الحبيبة والوطن بأنَّ الاثنين في قلبه على الرغم من شتاته عنهما، فهما شيء واحد، فيقول:

يـا أنْـتِ يـا وطَنًـا حملـتُ رُبوعَـه ... في غـربتي وجمعتُـهُ بشَـتَاتِي

عَيْنَـاكِ مَنْبَـعُ رَافديـهِ، ومُلتَقَـى ... فرعيـكِ خُضـرُ مُروجـهِ النَّضِـرَاتِ[٦]

فالشاعر يحنُّ لكلِّ الأشياء الموجودة في وطنه- مهما كانت صغيرة- خرير السواقي، عزف الرعاة، القرية، مدارج الصبية وغيرها، ويقارن بين اشياء وطنه وأشياء الآخرين، لكن الغلبة تكون دائمًا للوطن وأشياء الوطن، يقول:

(بـرديْ) يـرفُّ فأجْتَويـه لأنَّـني ... ضَـيَّعْتُ في عَيْنَيـكَ عَـذْبَ فُرَاتِـي

ورأيـتني وأنـا (بجَلَّـقَ) مالئًـا ... سـوقَ الشُّـيُوخِ علـى سِـتَّ جِهَـاتِ[٧]

وفكرة الأنهار والمقاربة بينهما وبين نهري العراق (دجلة والفرات) تسيطر على أكثر مجريات تفكير الشاعر، فأينما رأى نهرًا وقف يتذكر دجلة أو الفرات.

فإذا كان نهر بردى الذي يجري في الطبيعة الخلابة في سوريا يحتويه الشاعر لتذكره

الفرات المفقود، فإنه يشعر بالعطش والمرارة في لندن أمام نهر التايمز، فيقول:

جِئتُ من (رافديّ) أبحثُ في (التَّيْـ ... ـميس) عن راحةِ التي يصفونا
فتلكأتُ أكرعُ الظمأ المُرَّ ... وأرمي إلى الذئابِ المَعِينا
ثُمَّ هَبّتْ رياحُ (دِجلةٍ) من حو ... لِي، وفَاضَت عيناكِ يا (سبرينا)[٨]

فالشاعر لا يفتش عن نهر معين، وإنّما يبحث عن (دجلة والفرات)؛ دجلة بغداد، والفرات القريب جداً من النجف وسوق الشيوخ، فشوقه للنهرين نابع من شوقه للأماكن الثلاثة التي تشكل معظم ذاكرته في وطنه العراق.

أمَّا إذا انتقلنا إلى قصيدة أخرى فإننا نراه يخاطب المولود في صحراء الغربة التي استقبلته في الوقت الذي رفضه وطنه، فيقول في مطلعها:

نَبِّئُوني يا مَنْ (برفحاءِ) بانوا ... كيف يغفو بليلها اليقظانُ
كيف هَزَّت عَوَاصِفُ الرِّيح مَهْدًا ... ضَجِرَتْ من بُكَائِهِ الأوطانُ
ضاق فيه حصنُ الفراتين ذرعًا ... فتَلَقَّتْه هذه الكثبانُ[٩]

مثلت هذه الأبيات حكايات الجد المغترب لحفيده المغترب أيضًا المولود في الغربة الهادفة لتوريثه الحقيقة التي يعرفها الجدُّ.

ومن هنا جاءت التساؤلات الانكارية التي تستغرب غدر الزمان وأهله في تشرد أبناء الوطن في الوقت الذي تعبث به سلطات الدولة بمقدرات بلده الجريح، فيقول:

كيفَ تُظْمَى بِنتُ (الرُّمَيْثةِ) في نَجْـ ... ـدٍ، وتُسْقَى فُراتها الذُّؤبانُ[١٠]

لكن لا بدَّ أن يتذَّر العراقي- وإن ولد في المهجر- أنَّه عراقي:

أَنْتَ.. مَنْ أنْتَ؟ أنْتَ نَبْعٌ منَ (الأَهْـ ... ـوارِ) أودى بجذْرِهِ الطُوفَانُ
وفسيلُ نَخلَةٍ كَاد - لولا الـ ... ـحِقْدُ- يزهو بعَذْقِهِ البُسْتَانُ[١١]

ونلحظ من استقراء شعر مصطفى جمال الدين أنَّ المنافي الغربية هي الأكثر إكرامًا للشاعر في غربته من المنافي العربية، وذلك قوله:

نَسَيْتُكَ والقُلوب دارًا وحَنَّتْ ... لَمنافٍ (الفرنجِ) تلكَ النِّيَاقُ

دَارُنـــا في (الســـويدِ) والحقـــلُ في (الدَانُوبِ) و (الشَّيْخُ) عنـدنا إسْحاقُ[١٢]

ومن دلائل الغربة عنده، نجد أكثر قصائد الرثاء تفجُّعا عنده، هي القصيدة التي أوردنا البيتين الذين تقدما منها، وقالها في رثاء السيد عبد الزهرة الحسيني الذي كان ملاذًا للمغتربين العراقيين في الغربة ومكرمًا لهم، وفي هذا دلالة على أهمية مثل هذه الشخصيات للعراقي المشرد في الغربة، فالمرثي يتوحد بالعراق ابتداءً من مطلق القصيدة:

كيـــفَ تَنْســـى دموعُهـــا الآمـــاقُ والفَقِيـــدان: نبلُـــهُ والعـــرَاقُ[١٣]

وتستمر الغربة في نفسه فيوصي بأبيات تكتب على قبره، وهي عبارة عن جزء من قصيدة (من أمس الأمة إلى غدها) يطلب فيها الشاعر من تراب النجف - الذي لم يستطع أن يحضن جثمانه - أن يتمنَّ عليه بتذكُّره لأنَّه يشتاقه دائمًا:

يـا رَمْلَـةَ النَّجَـفِ الشَّـرِيف تَـذَكَّري ظمـأ العيـون ففـي يـدَيْكِ المَـوْرِدُ

حَنَّـت فكَـانَ لهـا بـذكركِ مسـرحٌ وشـكَتْ، فكـانَ لهـا برملِـكِ إِثْمِـدُ[١٤]

لأنَّه يتذكر بعدها أفضال النجف عليه من الطفولة حتى الكهولة، فيقول:

أَشْـرقتِ بِـي نـورًا وغرسـي نـاعمٌ وزَهـوتِ بي ثمـرًا وعـودي أَغْيَـدُ

ووقيـتني غُـرر الشـبابِ فمـا التـوت قـدمٌ، ولا امتـدَّت لنـا قصـة يـدُ

وعَـبرتِ بي نهـرَ الكُهولـةِ لم يضـق ذرعًـا بصـارتي الشـراعُ المُجهَـدُ

حـتى إذا (السـتون) أثقـل جـذعها ثلـجُ الشـتاء وبـاء ذلـك الموقـدُ

ألفيـتني ومـلابُ رملـك مـدى عـينيَّ مـن زَهـرِ الكواكـبِ أبعـدُ

ووجَـدتِني أنْـأى وأحمـل في دمـي مـن ذكرياتِـكِ مـا بـه أَتَجَلَّـدُ[١٥]

وكأنَّه قبل أن يوصي في آخر حياته أن توضع هذه الأبيات على قبره يريد أن يكمل بها سؤاله الأخير الذي طرحه في (القصيدة الأخيرة):

طـار فـلا ريشُـه ولا الزغَـبُ يُـدرِكُ أيَّـان ينتـهي التعَـبُ[١٦]

لقد شارك مصطفى جمال الدين آلاف العراقيين آلام الغربة، واقترب من الناس هناك؛ لأنَّه أدرك أنَّ الاغتراب أمرٌ مرٌّ يقرِّبُ بين المغتربين، وكأنَّ البيت الذي قاله قبل وفاته تحقق:

ولـــرُبَّ مغتـــربينَ سَـــاوَى بينـــهم داءٌ، وألَّبـــــهم عليـــــه دَوَاءُ[١٧]

ثالثاً: الغربة الزمانية:

من الطبيعي لأمة عاشت يومًا من الأيام قائدة للبشرية، وبعد ذلك تحولت إلى جزءٍ ممَّا يسمى بالعالم الثالث، أن يتحسَّر أبناؤها على ماضيهم الذي يمثل قمَّة الحضارة البشرية في زمنه.

وهذا ما شجَّع مصطفى جمال الدين على استدعاء الماضي في إطار ما يسميه على عشري زايد (المفارقة التصويرية لإبراز حدَّة التناقض بين ماضينا وحاضرنا)[١٨].

وجمال الدين صاحب الحس القومي الشديد، رجل الدين المعمَّم الذي يرى الزمان يتجاوز على أبناء أمَّة العروبة والإسلام، بعدما كانوا يصنعون تقدَّمه، ويقف متذكرًا تارةً ومتفجعًا أخرى على زمن ولَّى من الصعوبة عودته.

فلو رجعنا إلى قصيدته الشهيرة (بغداد)، وجدناه يسرد فيها ماضي بغداد العلمي والحضاري الخالد (إصراره على بقاء الماضي الجميل ولو كان مجرد تاريخ)، فيقول:

بغـدادُ مـا اشْـتَبَكَتْ عليـكِ الأَعْصُـرُ إلا ذَوَت ووَرِيـــقُ عمـــرِكَ أَخْضَـــرُ

مـرَّتْ بِـكِ الـدُنيا وصـبحُكِ مُشْـمِسٌ ودَجَـتْ عَلَيـكِ ووجـهُ لَيْلِـكِ مُقْمِـرُ[١٩]

فهذا الماضي يعدُّ مدعاة للفخر تارةً بما أنجزناه من علوم وتقدم، وتارة بالموروث الثقافي الذي يجعل أبناء الأمة قادرين على استلهامه بسرعة لردِّ الظلم عنهم، فظالمهم لا ينام إلا على شوكٍ وليس له عليه إلا أن ينظر ردَّة فعلهم، فيقول الشاعر:

إنَّـــا لِمَـــنْ أُمَّـــةٍ تـــاريخُ ثورتهـــا يقـــولُ حتَّـــى الصـــخورُ الصُّـــمُّ ثُـــوَّارُ

خضنا الـوغى وامتلكناها فما ارتعدت أرضٌ فتحنـــا ولا أرضٌ لنـــا جـــار

وحـــين دارتْ بنـــا الأيـــام دورتهـــا واســـتعمرتنا طواغيـــتٌ وأشـــرارُ

مـــا نـــامَ ظالمُنـــا إلا علـــى حَسَـــكٍ ولا تنبَّـــه إلا وهـــو منـــهارُ[٢٠]

بل قد يتجاوز المتعارف عليه لأحداث خُلِّدتْ في التاريخ مفارقة جديدة، فعن طريق تجاوز الأفق الشيعي الذي يجعل من تاريخ عاشوراء تجاوزًا لكلِّ ثورة، ونجده يرى أنَّ

انتفاضة الشعب العراقي على النظام السياسي عام ١٤١١هـ (وهي الحركة الشعبية التي قام بها شيعة العراق آنذاك ضد النظام الحاكم، إذ اتخذوا مقرات لهم داخل العتبات المقدسة لمناهضة الجيش العسكري، ثم بدأت تتطور لتدخل المرجعيات الدينية فيها- قد غطَّت على كلِّ شيء بما فيها كربلاء:

(كربلاءاتـــه) تناســـت مآسيـــ نـــا وغطَّـــى (عاشـــورَها) شـــعبانُ[٢١]

لكنَّه دائمًا ما يلجأ لمقارنة هذا الرصيد التراثي الغني بالحاضر التعيس لأنَّها وقعت في شهر شعبان المبارك، فيتفجع على الواقع عن طريق التساؤل، فبعد أن يسرد مجموعة من أمجاد الماضي، يقف متفجعًا فيتساءل بلسان أبناء الأمة اليوم، منويظهر ذلك في قصيدة (إلى القمة الصاعدة):

يـا لهـولِ الـذكرى، أنحـنُ الصَّـدى القَـا هِـــرُ منـــها، أم الصَّـــدى المقهـــورُ؟[٢٢]

أو قوله في قصيدة (الغدير):

يـــا لأمْجَادِنَـــا: أ نَحـــنُ بقايـــا الـــ سَّـــيْفِ منـــها، أمْ غِمْـــدُهُ المكســـورُ[٢٣]

وقوله في قصيدة (شهيد الفداء):

يـــا لأَحْلَامِنَـــا الثكـــالى: أَ هـــذا الكـــالحُ الوجـــهِ فجرُنَـــا الموعـــودُ؟[٢٤]

فهذا التساؤل الذي يوحد بين جيل اليوم وأجدادهم بأنَّهم من أمة العروبة والإسلام؛ لكن.. ماذا يمثل أبناء اليوم للكيان الإسلامي؟

أهو صدى مقهور؟ أم بقايا سيف؟ أم غمدٍ مكسور؟ أم وجه كالح؟، فهذه كلها دلائل على إضاعة أبناء الوطن اليوم لأمجاد الأمس.

والمقارنة بين الماضي والحاضر عند مصطفى جمال الدين تظهر دائما عندما تكون الغلبة للماضي، فالإسلام كان في العهد النبوي الشريف أيام المسلمين الذين حملوا الرسالة فكرًا وجهادًا، وليس المسلمين المتقاعسين عن أداء واجباتهم، الحاضرون دورهم في المسجد فقط، بل حتى هذا الدور لم يتفوقوا فيه على مسلمي الأمس، فيقول الشاعر:

وإذا فخـــرتُم بالمَســـاجِدِ أَنَّكُـــم عُمَّارُهـــا، فهـــم السُّـــجودُ الرُّكَّـــعُ

هـــذا الجهـــادُ فـــأينَ مـــن عَلْيَائِـــه جُبَـــبٌ مخرَّقـــةٌ وشـــيخٌ مهطِـــعٌ[٢٥]

أدت هـذه المقارنـات المحسـومة لصـالح الماضـي بالشـاعر في بعـض الأحيـان إلى اللـوذِ بالماضي والاستعانة بعناصره، سواء كانت هـذه العناصـر شخصيات أم دولًا، أم غيرهـا من الرموز التي تحيلنا إلى ماضي الأمة الزاهر.

ففي ذكرى المبعث النبوي الشريف، يقول الشاعر في قصيدته (إلى القمة الصاعدة):

قِمَّتِـي نحـنُ في مَهَـبِّ مِـنَ (الـذكرى) ألحَّ السَّـــــنَى بِـــــهِ والعَـــــبِيرُ

وأضـــاءَ التـــاريخُ وقـــعَ خُطَاهَـــا وهـــي في خَـــاطِرِ الســـنينُ تـــدُورُ

فانتخينـا، ونحـنُ في المسـرحِ الوَضَّـاءِ وهـــــنٌ بشـــــوطها وفتـــــورُ

نَجْتلبـــها لعـــلَّ في اللَّهَـــبِ الصَّـــاعِدِ مـــا يـــدفئُ المـــنى ويُـــثِيرُ[٢٦]

نرى أنَّ الفعل (انتخينا) فيه دلالة واضحة على اللوذ بالماضي، فطلب النخوة أثناء الضعف (نحن... وهنٌ) أيام (الذكرى) كلُّه طلب العون من التاريخ ليسعف الحاضر.

ونجد الأمر نفسه في قصيدته للشيخ المفيد (معلم الأمة) بأنَّه خالد في نفوس أبناء الأمة على الرغم من مرور ألف سنة على وفاته:

وتسْـــتَثُكَ الأجيـــالُ مِنَّـــا كأنَّنـــا صـغارُكَ نحبـو بـين عينـكَ، أو نُحيـي

كأنَّـــكَ لم تـــبرحْ إلى الآن واقفًـــا على الكرخِ من بغدادَ تستطلعُ الدربا[٢٧]

ويخاطبه بعدها بمجموعة من الأبيات تبدأ بالفعل (أتيناك)، وكأنَّ الشاعر يستلهم فيها من الشخصية (الشيخ المفيد) القوة اللازمة للثورة في وجه العدو:

أتَيْنَـاكَ لم يقعـدْ بِنـا خـوفُ ظَـالمٍ ولم نَتَهَيَّـبْ قـرعَ كـأسِ الـرَّدى نخبـا

أتينـــاكَ والثـــاراتُ حمـــرٌ وقوفهـــا دمُ (الصدر) تجلـو نـاره الليـل والكربـا

أتينـاك نـبني مـا تَهَـدَّمَ مـن هـوىً تفـــرُّدُه البـــاغي، فأوســـعَهُ نهبًـــا[٢٨]

وتصل الشكوى حدًا يقف الشاعر فيها قصيدة (من نبع النبوة) ليشكو حال الأمة لربها، فيقول:

سُـبْحَانَكَ اللـهم... نحـنُ كمـا تـرى صـبحٌ... ولكـن بالـدُجى يتَقَنَّـعُ[٢٩]

ونأتي بعد هذا إلى نوع آخر من الاغتراب والحنين إلى الماضي ،وهو الذي تحدَّث عنه الدكتور على عشري زايد بشكل (عام) بعيداً عن موازين القوة والضعف لدى الأمة، فالحنين للماضي الحالم الجميل، حنين إلى التراث - بخاصة الأسطوري منه- لينشد الشاعر فيه ذلك العالم البكر الذي يفقده في واقعه ليصنع من معطياته - على المستوى الفني- عالمًا شبيهًا))[٣٠]، وكلام زايد هنا عام لا يخصُّ به شاعراً محدَّداً.

وخير مثال على هذا النوع من الحنين قصيدته (بغداد في الليل) التي يرسم بها صورة جميلة لبغداد في ليلة بعينها قبل سنوات مضت، بغداد ذات الماضي الذهبي تحضر في ذهن الشاعر لتُحدثَ عنده بنوعٍ من المفارقة وإن لم يقارنها ببغداد في أيامه، فيخاطب بغداد طوال هذه القصيدة، ويرى أنَّ هذه الليلة مميزة لأقصى درجة، بقوله:

إيـــهِ بغـــدادُ وحســـبي أنَّهـــا ... ليلـــةٌ يـــنحطُّ عنـــها الـــدَّهرُ شـــأناً

كُـــلُّ مـــا فيهـــا بقايـــا ســـامرٍ ... وُلِـــدَ الـــنجمُ عليـــه وتفـــانى

نَتَملّاهـــــا وفي أطرافهـــــا ... أثـــرُ الخيبـــةِ والحرمـــان بانـــا[٣١]

هذه الليلة ذات الأحلام الجميلة، التي يتساءل جمال الدين فيها:

كَـــمْ بِهَـــا مِـــنْ أذنٍ أســـعدَها ... أنْ وَعَـــتْ نجـــوى الحَبِـــبينِ بيانـــا

وثُغـــورٍ ذُهِلـــتْ عـــن نفســـها ... وكراســـيٍّ - بـــلا قصـــدٍ- تـــدانى[٣٢]

تلك هي غربة الشاعر ومن فقدت فيه الأمة سلطانها وأحلامها، فتفجُّع مصطفى جمال الدين كان كلُّه على وهن الأمة، وضياع المجد.

نتائج البحث:

١. إنَّ المنجز الشعري العراقي المهجري منجز إبداعي بحد ذاته، ولعل قصائد غربة مصطفى جمال الدين هي من أجمل القصائد المهجرية المكتوبة في المنفى، وإنَّ استخدم المضادات والرموز، فهي من سمات الشعر الحديث، ولعل نتاج المنفى الشعري تناول الموروثات والرموز التاريخية بلغة إبداعية جميلة، وفريق من شعراء المنفى العراقيين ترجموا لشعراء عالميين، بل وأتقنوا الشعر بلغات عالمية أخرى، وقد فاز فريق منهم بجوائز عالمية مهمة.

٢. لقد أسهمت ترجمات شعر مصطفى جمال الدين في المنفى الى اللغات العالمي، الى إبراز الريادة العراقية الأولى في الشعر العربي، وأضافت سمة إبداعية أخرى في سعة انتشاره في الأوساط الأدبية العالمية، وكتبت عنه دراسات وأطروحات متعددة فلم يكن شعرا زمكانيا فقط، وإنما كان يمثل تراثَ وثقافة وأدبَ بلاد ما بين النهرين.

٣. لقد كان الحنين إلى الوطن، والأمّ، والحبيبة من موضوعات الشعر العربيّ لدى الشعراء الذين عبّروا عن غربتهم علّهم يلقون وصالاً منشوداً، أو يلفظون من صدورهم زفرات حرّى تخرج معها لهيب الشوق، لقد كان شعرهم مرآة نفوسهم التي تعبّر عن واقعهم وبيئتهم، وهذا ما لحظاه في شعر مصطفى جمال الدين؛ ولأنّ الغربة رفيقة الشاعر ظلّت الغربة موضوعاً لازم الشعر، وسيبقى مدى بقاء الإنسان.

هوامش البحث

(١)- ينظر: الحنين الى الوطن في الادب العربي حتى نهاية العصر الاموي محمد ابراهيم حوّر ص ٦-٨ .

(٢)- ينظر: الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب، أحمد عودة شقيرات: ١٤.

(٣)- الاغتراب في حياة الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم:١٠.

(٤)- فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا. يعتبر هيغل أحد أهم الفلاسفة الألمان، حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي

(٥)- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد: ٥٣-٥٤.

(٦)- الديوان: ٢٠٧.

(٧)- الديوان: ٢٠٦-٢٠٨.

(٨)- الديوان: ٢٥٢.

(٩)- الاغتراب في حياة الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم:١٠.

(١٠)- الديوان: ٢٦٢.

(١١)- الديوان: ٢٦٣.

(١٢)- الديوان: ٣٠٢.

(١٣)- الديوان: ٢٩٧.
(١٤)- الديوان: ٢٤٠-٢٤١.
(١٥)- الديوان: ٢٤١.
(١٦)- سيد النخيل القفى: ٣١٣.
(١٧)- الديوان: ٤٥٥.
(١٨)- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد: ١٥٩.
(١٩)- الديوان: ١٠١.
(٢٠)- الديوان: ١٥٧.
(٢١)- الديوان: ٢٦١.
(٢٢)- الديوان: ١٣٥.
(٢٣)- الديوان: ٢٢٨.
(٢٤)- الديوان: ١٨٦.
(٢٥)- الديوان: ١٨٦.
(٢٦)- الديوان: ١١٣.
(٢٧)- الديوان: ٢٨٨.
(٢٨)- الديوان: ٢٨٩.
(٢٩)- الديوان: ٤١٠.
(٣٠)- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد: ٥٥.
(٣١)- الديوان: ٣٨٥.
(٣٢)- الديوان: ٣٨٣-٣٨٣.

قائمة المصادر والمراجع

١. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، على عشري زايد، مطبعة النجف، ط١، ١٩٩٧م.
٢. الاغتراب في حياة الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، مطبعة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
٣. الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب، أحمد عودة شقيرات، دار العودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
٤. الحنين الى الوطن في الادب العربي حتى نهاية العصر الاموي محمد ابراهيم حوّر، ط٢، ١٩٩٨.
٥. ديوان مصطفى جمال الدين، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
٦. سيد النخيل القفى، مصطفى جمال الدين، مكتبة النور، ط١، ١٩٩٤م.